مراجعات في الكتب

مراجعات في الكتب

جيهان صفوت رؤوف، شلي في الأدب العربي في مصر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، (٤٢٦ ص).

الرومانتيكية او الرومانسية (Romanticism) صفة لحالة أهم خصائصها حساسية قصوى وعدم الرضوخ لما يمليه العقل وتقديم الخيال عليه والفرار من الواقع الى اللامعقول وطلب الحرية والافراط في الاهتمام بالذات حتى درجة العبادة والمغالاة في الانهماك بشؤونها الى جانب التمسك بالدين والميل الى الخوارق واعتبار الطبيعة ملاذا اولا واخيرا والتوق الى عالم تسوده قيم العدالة والمساواة والمحبة ورفض الاضطهاد والقمع والبؤس. اما في الأدب فيقصد بهذا المصطلح ثلاثة مذاهب متشابهة في بلدان مختلفة:

أ) مدرسة الأدباء الألمان في أواخر القرن الثامن عشر بقيادة فريدريك شليجل (Friedrich Schlegel) (١٧٧٢ - ١٨٢٩) التي تميزت بالثورة على المبادىء الأدبية والجمالية من زمن أرسطو واحلال الوجدان والانفعالات النفسية الشخصية محلها واعتبار الرواية النثرية النوع الأدبي المعبر خير تعبير عن عصر هذه المدرسة تعبير الملحمة عن العصر الكلاسيكي.

بـ) مدرسة الشعر والنقد الانكليزية التي نشأت في أواخر القرن الثامن عشر وثارت على الأنماط الشائعة في الأدب في سبيل تحرير الشعر من الركود الذي أصابه ولا سيما في مجال الافراط في استعمال المحسنات البلاغية. وقد جعلت هذه المدرسة الشعر أداة للتعبير الصادق عن نفسية الانسان مع شدة الاهتمام بالطبيعة.

جـ) المدرسة التي ازدهرت بفرنسا في الربع الثاني من القرن السابق وأهم مميزاتها شدة العناية بالذات والتعبير عن الشعور بالوحدة والحزن الناشيء عن القلق. وقد أثارت هذه المدرسة اهتماماً جديداً بالآداب الجرمانية والاسكندنافية مع الرجوع الى مصادر الوحي في الآداب الشعبية القومية.

وقد برزت بصفة خاصة من بين المدارس الثلاث المدرسة الرومانسية الانكليزية التي احتلت مكاناً مرموقاً في الخريطة الأدبية العالمية منذ القرن الماضي وذاع صيت أعلامها مثل وليم وردزورث (William Wordsworth) (١٧٧٠ - ١٨٥٠) وصموئيل كولريدج (Samuel Coleridge) (١٧٧٢ - ١٨٣٤) وجون كيتس (John Keats) (١٧٩٠ - ١٨٢١) وبالطبع بيرسي بيش شلي (Percy Bysshe Shelley) (١٧٩٢ - ١٨٢٢) ذلك الشاعر الذي مات غريقاً بينما كان لا يزال يكتب قصيدته غير المكتملة «انتصار الحياة». وقد كان لهذه المدرسة دور هام في انطلاقة الشعر العربي الحديث في العشرينات والثلاثينات وبخاصة في مصر من خلال تأثيرها على مدرسة الديوان وأعلامها عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) وابراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ - ١٩٤٩) وعبد الرحمن شكري (١٨٨٦ - ١٩٥٨) وما استمده منها أقطاب مدرسة أبولو أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) وابراهيم ناجي (١٨٩٣ - ١٩٥٣) وعلي محمود طه (١٩٠٢ - ١٩٤٩) وشعراء رومانسيون وآخرون وبينهم حتى من لم يتقن اللغة الانكليزية ولم يطلع على نتاج الرومانسيين الانكليز الا من خلال الترجمات كالتونسي أبي القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤) الذي قطفته يد المنية وهو في ريعان شبابه.

ولقد أصبح أمرا غير قابل للنقض تأثير الرومانسية الانكليزية على الرومانسيين العرب ولكن الى اي مدى؟ وما هي طبيعة هذا التأثير؟ هل اقتصر على نقل الأفكار ام امتد الى التأثر بالصور الشعرية؟ ولم يطرق هذا الباب النقدي حتى الآن الا القليل من الباحثين وجاء كتاب الباحثة جيهان صفوت رؤوف ليسد هذه الثغرة او بالأحرى ليحاول ذلك.

هذا الكتاب يستند الى رسالة ماجستير أعدت تحت اشراف الأستاذة الأديبة المصرية سهير القلماوي، والباحثة ما هي الا سيدة مصر الأولى في السبعينات ومطلع الثمانينات الا وهي السيدة جيهان السادات التي يرد على الغلاف اسمها الأصلي قبل زواجها من الرئيس الراحل، ويتضح للمطلع على قائمة المراجع أن الباحثة استخدمت أفضل المصادر سواء من ناحية النصوص الشعرية والدراسات التي تتعلق بالشاعر الذي جعلته مركزاً لبحثها او الدراسات عن الرومانسية في الشعر الغربي والعربي ام الدراسات النقدية عن الشعر العربي الحديث. ويشار بصفة خاصة الى اعتمادها على دراسات باحثين اسرائيليين هما الاستاذان البروفيسور شموئيل موريه من الجامعة العبرية والبروفيسور دافيد صيمح من جامعة حيفا. وتقول الباحثة في تمهيدها للكتاب (ص ٩ - ١٨): «كل حركة تجديد في الفن والأدب لابد ان ترتكز على دعامتين أساسيتين هما التراث والوافد الأجنبي، بل ان تطور هذه الحركة منذ نشوئها حتى اكتمالها ليس الا تفاعلا ديناميا بين التراث والوافد، وخصائص هذا التطور تستمد وجودها وتميزها من حقيقة هذا التراث وطبيعته وحقيقة هذا الوافد وطبيعته». ومع اننا لسنا بصدد التقليل من قيمة الوافد الأجنبي ولا سيما في الأدب العربي الحديث الذي لعب مثل هذا الوافد دوراً حاسماً في تطوره، الا اننا نأخذ على الباحثة تعميمها ذلك على «كُل حركة تجديد في الفن والأدب» علماً بان هناك حركات تجديد فنية وأدبية عديدة ينعدم فيها التفاعل بين التراث والوافد الأجنبي ويكمن مصدرها في قوى وتيارات داخلية ليس الا، ناهيك عن حركات تجديد في مناطق منعزلة مثل الصين حتى القرون الأخيرة. وبعد أن تستعرض الباحثة في سياق التمهيد المدارس الفرنسية والالمانية والامريكية في الأدب المقارن استناداً الى مصادر هامة وقيمة أبرزها مؤلفات R. Wellek و W. Ulerich في هذا المجال، تسير في طريق درس الجزئيات لتأكيد اتجاه التعمق في الجزئيات قبل الوصول الى النتائج الشاملة او تقدير الظواهر العامة التي لا تكشف عن شيء يثري بشكل او بآخر دراسة الأدب المقارن في نقدنا العربي الحديث».

وقد قسم البحث الى ثلاثة أقسام يحمل أولها (ص ١٧ - ١٢٠) اسم «الرومانسية وشلي» ويخصص بابه الأول (ص ٢١ - ٦١) لموضوعين أولهما خصائص الرومانسية الانكليزية (ص ٢١ - ٤١) تتطرق فيه الباحثة الى تعريف الرومانسية من قبل مشاهير النقاد، وكذلك الى أفكار الرومانسيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر واستعراض المدارس الأوروبية الرومانسية الثلاث - الالمانية والانكليزية والفرنسية، ثم التغييرات السياسية والجمالية في اوروبا في القرن الثامن عشر وآثارها في الأدب الرومانسي وأوجه

التمييز بين الرومانسية والأدب الكلاسيكي وعرض للحركة الرومانسية الانكليزية ومفهوم الخيال عند الرومانسيين الانكليز. وتستند المؤلفة في عرضها لجميع هذه المواضيع الى أبحاث أجنبية قيمة مثل مؤلفات M. H. Abrams و M. Bowra و B. Irving ، اضافة الى المؤلفات النثرية للشعراء الرومانسيين أنفسهم مثل السيرة الأدبية (Biographia Literria) لكولريدج ومقدمة وردزورث لقصائده القصصية الغنائية (Preface To The Lyrical Ballads) و«دفاع» شلي عن الشعر (Defence Of Poetry). اما الموضوع الثاني في الباب الأول (ص ٤٧ - ٦١) فيعالج خصائص الرومانسية العربية في مصر وتعرض الباحثة في سياقه مميزات مدرستي الديوان وابولو واعلامهما.

وتكرس الباحثة الباب الثاني (ص ٦٣ - ١٢٠) من هذا القسم للتعريف بالشاعر وتاريخ حياته وآثاره ومواقفه الشعرية وآراء النقاد فيه. ويشتمل الجزء الأول من هذا الباب على تفاصيل مثل تاريخ حياة الشاعر وكل ولادته واشغال والده وعلاقات الشاعر مع اخواته مسرد مراحل تعلمه وزواجه وغرامياته وعلاقاته مع الشاعرين كيتس وبيرون. وكل هذه التفاصيل ليست ضرورية في بحث نقدي. ويبدو لنا أننا أمام أحد المزالق النقدية التي حذرت منها نازك الملائكة في كتابها «قضايا الشعر المعاصر» (بيروت، ١٩٦٣، ص ٢٨٤) بقولها «وقد بات شائعاً أن يكتب الكاتب مقالا في نقد قصيدة او ديوان شعر فينتقل دون وعي الى الحديث عن حياة الشاعر وظروفه الاجتماعية والبيئية». وفي رأي نازك الملائكة فان الناقد الذي يسقط في هذا المزلق «يخرج كلياً عن حدود مملكة النقد الأدبي ويدخل في نطاق سيرة الحياة». كما ان قائمة آثار شلي كان أولى بالباحثة أن توردها في أحد ملاحق الكتاب. ثم تستعرض الباحثة نظرية الشعر عند شلي ورسالته «الدفاع عن الشعر» واسلوبه الشعري ومفهوم الخيال عنده وتعرض امامنا اعماله الشعرية الطويلة والقصيرة.

ويلاحظ أن القسم الأول الذي يشكل تعداد صفحاته أكثر من ربع الكتاب ليس له صلة وثيقة بموضوع البحث الذي يوحي بدراسة تأثير شلي في الأدب العربي او بمقارنة آثاره مع آثار الأدباء العرب، فكل ما طالعناه حتى الآن يقتصر على اتجاهين: أولهما الرومانسية العالمية وبالأخص الانكليزية والعربية، اما الثاني فيعالج حياة شلي وآثاره، وكلاهما ليسا من اهداف البحث. زد على ذلك ان الباحثة لا تتحفنا باي جديد في هذه المجالات.

ويحمل القسم الثاني من الكتاب (ص ١٢١ - ١٧٨) عنوان «شلي والعرب» وقد قسم بابه الأول الى شقين يتناول اولهما (ص ١٢٣ - ١٣٠) صلة الشاعر بمصر والعرب والاسلام كما تبدو من خلال أشعاره، و يعالج الثاني (ص ١٣٠ - ١٥٠) فجر الاتصال بشلي نشراً وشعراً ويمكن اعتباره بمثابة أول تطرق جوهري من قبل المؤلفة الى موضوع البحث. وتعرض المؤلفة في اطار هذا الشق من الباب الأول للاهتمام في الأوساط الأدبية المصرية بشلي وآثاره وأفكاره وتأثير كتاب «الذخيرة الذهبية» الذي أعده بالجريف (*The Golden Treasury,* ed. F. T. Palgrave) على الأدباء المصريين، ولا سيما على أعلام مدرستي الديوان وابولو، وبداية تقليد آثار شلي وترجمتها للعربية والدراسات عن أشعاره مثل الدراسة التي نشرها محمد حسين هيكل على صفحات «السياسة الاسبوعية» التي كان يرئس تحريرها.

اما الباب الثاني من القسم الثاني (ص ١٥١ - ١٧٨) فيعالج موضوع تقبل فكرة ترجمة الشعر الأجنبي وبداية الأخذ والاستيحاء من شلي، او بالأحرى مما ورد في «الذخيرة الذهبية» من تأليف هذا الشاعر. وتعمد السيدة جيهان الى ذكر قصيدة المازني اليائية التي اتهم عبد الرحمن شكري المازني بأنه أخذها من قصيدة لشلي دون أن يذكر ذلك مما كان سبباً في هجوم المازني على شكري وانفصال شكري عن مدرسة الديوان.

ويحمل القسم الثالث والأخير من الكتاب (ص ١٧٩ - ٣٨٩) عنوان «شلي والترجمة» ويخصص بابه الأول (ص ١٨١ - ٣٦٥) لترجمات شعر شلي للعربية حيث تورد الباحثة أربع قصائد من تأليف شلي وترجماتها العربية وهي «الى قبرة» (To a Skylark) ولها ما لا يقل عن احدى عشرة ترجمة للعربية ثم «الطائر المترمل» (A Widow Bird) ولها ثلاث ترجمات عربية وبعد ذلك قصيدة «أنشودة الى الريح الغربية» (Ode to the West Wind) التي ترجمت بأكملها او مقاطع منها خمس مرات وأخير «فلسفة الحب»(Love's Philosophy)التي ترجمت عشر مرات. وتتبع الباحثة بدقة كلا من هذه الترجمات من ناحية الصحة والخطأ والحذف والاضافة ثم تنتهج نفس الأسلوب في قصائد مترجمة أخرى.

و يدخل الباب الثاني (ص ٣٦٧ - ٣٨٥) في جوهر موضوع الكتاب حيث يتناول أثر شلي في الرومانسيين المصريين وبخاصة في أشعار علي محمود طه. و يرصد هذا الباب عناصر مشتركة في نتاج شلي وطه تركز الباحثة على أربعة منها، هي التشابه في مفهومها

للشاعر اذ كلاهما يصعد بالشاعر الى مستوى النبوة ثم الناحية التجريدية فاستخدام رموز شعرية مستوحاة من الأساطير الاغريقية والتنوع في شكل القصيدة وتركيبها.

ونأخذ على الباحثة أنها استخدمت المصطلح «ميتافيزيقي» بالنسبة لنتاج الشعراء الرومانسيين الانكليز دون ان تشير ولو بكلمة واحدة الى الشعراء الميتافيزيقيين في الشعر الانكليزي في القرن السابع عشر الذين كان شعرهم يتميز بالأجواء الصوفية والتحليق فوق المألوف، ولكن شتان ما بينه وشعر الرومانسيين. ان عدم الاشارة الى الفوارق بين المدرستين، مع استخدام المصطلح «ميتافيزيقي» الذي أصبح مقروناً بالمدرسة الشعرية المشهورة من القرن السابع عشر لوصف مدرسة أخرى تلتها زمنياً.

وأخيراً، يجب أن نشير الى أن الكتاب الذي أمامنا ينطوي على مواد خام بكميات هائلة هي أشبه بالمواد الأولية التي يجمعها كل باحث في المرحلة الأولى من بحثه، فهناك استعراض للمدرسة الرومانسية في الغرب وفي الشرق العربي وثمة ترجمات شلي للعربية انتقيت من مختلف المصادر وهناك ملحقات قيمة تحوي قوائم بالقصائد المترجمة سواء من «الذخيرة الذهبية» او من مصادر أخرى، كما ان ثمة قائمة باسماء المترجمين والمجلات والكتب التي نشرت فيها الترجمات مع تواريخ النشر. وفي اعتقادي يشكل هذا الكتاب مصدرا لا يمكن الاستغناء عنه لكل من يريد الاهتمام بالملامح الرومانسية في الشعر العربي الحديث، بل انه بمثابة موسوعة قيمة ومفيدة لكل باحث. وحبذا لو افردت الباحثة المجال الكافي في الكتاب للنواحي النقدية التي كان من الأحرى ان تحتل الحيز الاوفر منه، طبقاً لما حددته المؤلفة من أهداف لبحثها، ولا سيما في مجال استقصاء تأثير شلي على الشعراء العرب. وملاحظة أخيرة تقتضيها الدقة: لقد أطلقت الباحثة على الكتاب عنوان «شلي في الأدب العربي» إلا أنها عالجت فيه الشعر فقط، ولذا كان أولى بها أن تسميه «شلي في الشعر العربي».

رؤوبين سنير